المستلب بين الفضاء المكاني والانشطار الذاتي في شعر مهمشي العصر العباسي

م.د تغريد خليل حامي

المديرية العامة للتربية في محافظة ذي قار

tghrydalshwyly@gmail.com

الملخص:

إن الاستلاب النفسي بكل تمثلاته هو الهروب إلى عوالم خفية إلى خيبات الأمل، والتنازل عن المنزلة الاجتماعية، والانكفاء على الذات والعزلة والوحدة النفسية. أي أن التصادم بين الذات وغاياتها وبين المجتمع وقوانينه وتناقضاته قد يؤدي إلى تهميشها وتشظيها، وعدم تفاعلها مع مجتمعها ومحاولتها إلى الهروب من عالمها الواقعي بكل أحداثه وصراعاته وآلامه. وعليه تتجسد ماهية الاستلاب النفسي وآلياته على وفق ثنائية التمركز والتهميش، التي تعدّ محوراً مهماً في تصنيف المجتمع على أساس طبقي، فتبرز طبقة الأسياد، وهي الطبقة العاملة والمؤثرة في المجتمع، والمتحكمة في آليات الانتاج بقوتها وسلطتها، والتي تسفر عن وجود الطبقة المهمشة، وهي طبقة مستلبة عاجزة عن التكيف مع المجتمع والتفاعل معه، أو وصفها عنصراً فعالاً في آليات الانتاج، أي أنّها ترفض تقاليده وعاداته وثقافته، مما يجعلها خارجة عن انظمته وقوانينه.

ومن هنا فالاستلاب في ماهيته وبواعثه الكامنة في تشظي الذات وتهميشها يتصل اتصالاً مباشراً بالسلطة الاجتماعية من جهة، والسلطة الحاكمة التي لها الأثر الكبير في مركزية الأفراد، أو تهميشهم وسلب حقوقهم في العيش وتقرير مصيرهم. ومن هنا ارتأينا دراسة تشظي الذات وإحساسها بالغربة والاستلاب الشعوري في شعر مهمشي العصر العباسي في محورين هما : الاستلاب المكاني، الذات المستلبة وتشظي الزمان.

الكلمات المفتاحية: (الفضاء المكاني والانشطار الذاتي، شعر مهمشي العصر العباسي).

The alienated between spatial space and self-division in the poetry of the marginalized of the Abbasid era

T.A Taghreed Khaleel Hami

Directorate General of Education in Dhi Qar Governorate

Abstract:

Psychological alienation in all its manifestations is an escape to hidden worlds of disappointments, giving up social status, withdrawal into oneself, isolation and psychological loneliness. That is, the clash between the self and its goals and society, its laws and contradictions may lead to its marginalization and fragmentation, and its lack of interaction with its society and its attempt to escape from its real world with all its events, conflicts and pains. Accordingly, the nature of psychological alienation and its mechanisms are embodied according to the duality of centralization and marginalization, which is an important axis in classifying society, so the master class emerges, which is the working and influential class in society, and controls the mechanisms of production with its strength and authority, which results in the existence of the marginalized class, which is an alienated class unable to adapt to society and interact with it, or describe it as an active element in the mechanisms of production, meaning that it rejects its traditions, customs and culture, which makes it outside its systems and laws Hence, alienation in its essence and its underlying motives in the fragmentation and marginalization of the self is directly connected to social authority on the one hand, and the ruling authority that has a major impact on the centrality of individuals, or their marginalization and the deprivation of their rights to live and determine their fate. Hence, we decided to study the fragmentation of the self, its sense of alienation and emotional alienation in the poetry of the marginalized of the Abbasid era in two axes: spatial alienation, the alienated self and the fragmentation of time.

Keywords: (Space and self-dissociation, poetry of the marginalized in the Abbasid era).

مدخل:

إنَّ لكلمة الاستلاب ((تفسيراً قانونياً (انتقال أو بيع مال أو حق)، وتفسيراً سيكولوجياً(الضعف الفكري العام) وتفسير علم الاجتماع (انحلال الرابطة بين الفرد والآخرين)))[١]. أي تنطلق دوافع الاستلاب وبواعثه السيكولوجية من ذات مهمشة لها خلفياتها الاجتماعية والسياسية والنفسية، وتتمظهر مواقفها الدينامية المؤثرة تجاه الحياة والمجتمع، وذلك؛ لأن ((الفرد لا يحمل بدئياً، في ذاته، ماهية إنسانية، لكنه يجد هذه الماهية خارج ذاته في العلاقات الاجتماعية. ليس الشخص، بتعبير آخر، جوهراً مطلقاً، بل هو نظام علاقات))[٢]، اجتماعية وسياسية معاً مستندة إلى الآخر بكل هيمنته وسلطته.

إذ يرتأى هذا الآخر المتسلط إلى استعمال الأساليب والوسائل النفوذية من أجل التحكم في الذات، ومحاولة تهميشها وسلب ذاتها وكيانها وقدرتها على العيش في مجتمعها بإدامة ورفاهية، الأمر الذي يؤدي انشطار الذات وتشظيها بين عالمين متباينين ومتداخلين في الوقت ذاته: عالمها الوجودي الواقعي تحت وطأة الاستلاب والتهميش، وعالمها المتخيل في الرفاهية والعيش الكريم وتحقيق المطامح والغايات، فتطمح الذات المهمشة في الوصول إلى هذا العالم المثالي الذي لا يفارق مخيلتها وتصوراته الوجودية في مجتمعها وحياتها الواقعية.

وتأسيساً على ذلك يمكن القول: إن إدراك ماهية استلاب الذات واستيعاب واقعها الاجتماعي المهمش؛ انطلاقاً من تعيين الطبيعة الإنسانية السيكولوجية بعدّها فاعلية تحرك الذات، وتجعلها تفصح عن مشاعرها ومكنوناتها النفسية، فضلاً عن ذلك من فهم وإدراك ديناميات بنيات العقل الذهني. وعليه يمكن أن نعرف الشخصية المستلبة أو المغتربة بأنها: الشخصية التي فقدت الانتماء لبنية العقل المهيمنة ولم تحقق الانتماء لبنية العقل التعويضية. وتتجسد آثار الاستلاب الوجودي للذات المهمشة والمعذبة اجتماعياً وسيكولوجياً في: فقدان السيطرة والتحكم، اللامعنى، اللامعيارية، الانعزال الاجتماعي والهروب من الواقع، فالغربة النفسية والاستلاب الذاتي.[٣]

إن الاستلاب الوجودي يتأسس على وفق ثلاثة أنواع من الغياب، غياب الفضاء المكاني الواقعي:

١- غياب المطلق: أي كل الأشياء مباحة من دون حدود وقيود، وكل القيم والمبادئ بلا معنى، وذلك لانعدام أو اضمحلال القيم المطلقة والثابتة التي ترسم للإنسان حدود تصرفاته وسلوكياته المتباينة.

٢- غياب المعنى: أينما سلك الإنسان طريقه فلن يجد سوى اللامعقول واللامنطقي. والعقل عاجز عن الإدراك والإجابة على أهم الأسئلة: ما هي الحياة؟.

٣- المجانية: إذ يقصد بها غياب الضرورة، غياب أي أنظمة أو قوانين من شأنها أن تعطي الإنسان الإحساس والشعور بالأمان والاستقرار والثقة بالمستقبل، ليس هناك علم وإدراك في ابسط شيء[٤].

وعليه فالذات المهمشة تصف عالمها الواقعي المؤلم في وطأة الفقر والجوع والحرمان، ومن بين الأساليب الدينامية التي يستعملها الشاعر المهمش نفسياً واجتماعياً في خلق عالمه الخاص في فضاء مكاني محدد؛ عمليات تجسيد واقع الذات المهمشة، وصراعها المتأزم مع الآخر المتعالي بهيمنته وسلطته، إذ يسعى الشاعر عبر علامات نصه الشعري ومكنوناته الدلالية؛ للكشف عن عوالم ذاته المستلبة وخصائصها السيكولوجية؛ الرامزة بصورة واضحة إلى معاناتها وألمها وتأزمها، والأساليب التي يتخذها الآخر لتهميشها واستلابها، وعليه تنخلق افكار السياق النصي، وعلاماته الدلالية العميقة المتأسسة بوساطة صوره ورموزه الإيحائية المكثفة، لتتمثل الذات المهمشة العاكسة لواقعية الاستلاب بدوافعه وأبعاده السيكولوجية من جانب، ومواقف الذات المهمشة وسلوكياتها المتشظية إزاء مجتمعها في فضاء مكاني وزماني محدد من جانب آخر.

أولاً: الاستلاب المكاني

المكان هو الكيان الاجتماعي بحدوده وفضائه الذي يشتمل على خلاصة التفاعل الدينامي بين الإنسان ومجتمعه ، وعليه فشأنه شأن أي تأسيس اجتماعي آخر يحل جزءاً من أحاسيس وأفكار ووعي ساكنيه وعبر الافضية المكانية؛ نتمكن من قراءة سيكولوجية ساكنيه، وطريقة حياتهم الواقعية، وكيفية تعاملهم مع عالمهم الواقعي بكل تجلياته وتمظهراته[٥]، أي أن جوهر المكان وحقيقته النفسية تتمركز في أن الخصائص الموضوعية للمكان ليست إلا أداة دينامية، أو أدوات قياسية تسهل التعامل بين الأفراد في حياتهم الواقعية المعاشة[٦].

وعليه فالفضاء المكاني ليس بناءً خارجياً حسياً مرئياً، ولا حيزاً محدد الحدود والمساحة، ولا تركيباً من غرف وأسيجة ونوافذ وبيوت، بل هو كيان موضوعي سيكولوجي من الفعل المنفرد والمضمون على تاريخ ما ، أو المتضحة بواعثه وأبعاده بتواريخ الضوء والظلام [٧]، أي أنّه الفضاء الهندسي بكل ابعاده وطوبوغرافيته وتماسكه الايديولوجي، والذي تتشكل علاقته الدينامية بالذات المستلبة على وفق قانون الفعل ورد الفعل، إذ بقدر ما يؤثر المكان ويحفز في الذات دوافعها السيكولوجية وخصائصها الخارجية ، فإن المكان يتولد وتتأسس عناصره وانواعه وتمثلاته المتباينة؛ بوساطة أفعال هذه الذات المهمشة وفعالياتها الدينامية المستمرة إزاء واقعها الاجتماعي المؤلم[٨]؛ لتنخلق العلاقة الفاعلة بين الذات المستلبة والفضاء المكاني بوساطة المألفة، وهي في أوضح معانيها ودلالاتها: اختيار الافضية المكانية والتواريخ والذوات والأفكار والأحداث والأشياء والأساليب – أيّ المواد والأدوات الأولية

للبناء – التي تتألف وتتداخل فيما بينها؛ لتشكيل وحدة النصّ الشعري وتماسكه الدلالي، فهذا التواشج والتماسك النصي؛ قادر على أنّ يؤدّي غرضاً وهدفاً محدداً[٩] تقصده الذات المستلبة نفسياً واجتماعياً في نصها الشعري برموزه ودلالاته الإيحائية المكثفة، وذلك لتبث عبر سياقات النص وخفاياه تجربتها الشعورية المتأزمة إزاء واقعها الوجودي القاهر .

وانطلاقاً من ذلك يمكن القول: إن هناك تمايزاً منفرداً بين المكان السيكولوجي والمكان المثالي ذلك أن((المكان النفسي الذي ندركه بحواسنا مكان نفسي لا ينفصل عن الجسم المتمكن، على أنّ المكان المثالي الذي ندركه بعقولنا مكان رياضي مجرد ومطلق، وهو وحده متجانس ومتصل))[١٠]. ومن هنا فللمكان في النص الشعري جانبان: جانب هندسي خارجي، جانب ذاتي داخلي. إذ تسمى الحدود الفضائية المكانية ، أيّ الجانب الذي يلزمه تشكيل الشيء ، إذ يكون له حاجز خارجي يحدّه ، ويعزله عن حدود الخارجية المكانية الأخرى، وحاجز داخلي، يميّزه ويفرده كظاهرة خفية لها علامات ومكنونات محددة[١١] ، وهنا تتمظهر جدلية المكان في السياق النصي توصف بأنّها ((تحولاته الزمنية والوظيفية والجمالية. بين أن يكون فاعلًا في النص ، كجزء من عناصره البنائية وعندئذ يكون كله داخلاً ، وان يكون مفعولاً به، يبني المؤلف فيه نصه ، كمشارك في البنية الكلية وعندئذ يكون كله خارجياً))[١٢].

أي أن الفضاء المكاني حقيقة تعيشها الذات المستلبة في علاقة متداخلة تأثيرية أي كل منهما يتداخل مع الآخر ويؤثر فيه تأثيراً دقيقاً، فلا يوجد فضاء مكاني فارغ أو سلبي، ويحتمل في معالم الفضاء حدوداً وأبعاداً تنبع من التنظيم التنسيقي المعماري، فضلاً عن ذلك تنشأ من الخلفيات الاجتماعية والسياسية والثقافية، فيسند كل فضاء مكاني فعلاً وسلوكاً منفرداً على الذات الشاعر المهمشة التي تلجأ إليه وتنطق بكل ألم وقساوة بأبعاده وخصائصه السيكولوجية [١٣].

إذ يقول الشاعر المهمش ابو الشمقمق معبراً عن حالته الفقيرة المعدمة بلغة سيكوفنية رامزة إلى الاستلاب المكاني بكل خصائصه وملامحه، وذلك عبر وصف بيته وصفاً دقيقاً سيكولوجياً:

وَلَقَدْ قَلْتُ حِينَ أَقفَر بيتي من جرابِ الدّقيقِ والفخّارَه

ولقـد كـان آهـلا غـير قفْرٍ مُخصِباً خَيْره كثير العِمَـاره

فأرى الفـار قـد تجنَّبنَ بيتي عائـذات منـه بـدار الإمـاره

ودَعَا بالرّحيل ذِبَّان بَيتي بين مَقصوصةٍ إلى طيَّاره(١٤)

المتأمل لهذا النص الشعري يجد ايديولوجية المكان قد تعالقت بصورة دقيقة مع عوالم الذات المهمشة وتجربتها الشعورية المتأزمة، إذ يبدأ الشاعر باللحظة الاستهلالية الحوارية والوصفية معاً الرامزة إلى حالة الشاعر البائسة بقوله: (وَلَقَدْ قَلْتُ حِينَ أَقفَر بيتي من جرابِ الدّقيقِ والفخّارَه) ؛ ليصف بيته وصفاً شعوراً انتقائياً دالاً دلالة واضحة على الحياة المأساوية التي يعيشها ابو الشمقمق ويكابدها تحت هيمنة الفقر والجوع ، فيرسم في نصه الشعري صورة تشبيهية ترمز إلى استلاب المكان بعلاماته وبواعثه السيكولوجية؛ لتقع هذه الصورة بين المشبه بيته البائس المعدم، والمشبه به الصحراء القاحلة الجرداء، فقد أقفر بيت أبي الشمقمق من جراب الدقيق.

إذ يعدّ الدقيق مكوناً رئيساً من مستلزمات العيش ومقوماته، بل أنّه أهم مقوم على وفق رؤية الشاعر لإدامة الحياة واستمرارها؛ ليتحقق الانسجام اللفظي والتماسك المعنوي المتصل اتصالاً دلالياً وإيحائياً بعلامات النص، ومدلولاته المكثفة الرامزة إلى ذات مهمشة فاعلة في فضاء مكاني، أي أن حركة الذات وصراعها مع نفسها لا يمكن أن تنخلق، وتتمظهر أفكارها واحاسيسها الوجدانية إلا في مكان يحتويها ويستوعبها.

ومن هنا يتشكل استلاب المكان في النص الشعري من مدلولات تركيبية وموضوعية وسيكولوجية: المدلولات التركيبية والموضوعية معاً مختلقة من خطاب الشاعر ومناجاته لذاته المهمشة، ولاسيما حواره المنولوجي مع نفسه وبيته في الوقت ذاته ، أي أن هذه المناجاة والافصاح عن المشاعر الجياشة والمتألمة إزاء واقعه الاجتماعي المعدم في علاقة سيكولوجية دينامية؛ تتصل اتصالاً واضحاً بمسار الفضاء المكاني وحركته وافتقاره إلى الألفة والاستقرار، بل تحوله إلى مكان معادي تفقد فيه الذات شعورها بالأمان والطمأنينة، إذ إنَّ الذات تحاول أن تتحرر من قيوده وفضائه، نتيجة لمَّا يفرضه عليها من استلاب ذاتي، وغربة مكانية على وفق سيكولوجية المكان، وافتقاره للمقومات الرئيسة للسكن وإدامة الحياة .

إذ يرمز الشاعر إلى حالته القاسية والمعدمة عبر توظيفه الحيوانات المتباينة (الفأر والذباب والسنّور) في نصه الشعري، فهذه الحيوانات تقيم في بيته وتحيا على بقايا الدقيق، وبما أن بيته يفتقر إلى الطعام والدقيق يعزم الفأر على الرحيل ويلجأ إلى قصور الأمراء، إذ يجد الطعام الكثير وحتى ذِبَّاب بَيته يكون قدرها قدر الفأر في الرحيل والبحث عن قوتها، فقد وصف هروب الذِبّاب من بيته وصفاً دقيقاً؛ موحياً بحالته التعيسة المتأرجحة بين مقصوصة الأجنحة وسرعتها في الهروب من ألم الجوع وشدته، وهنا يشير الشاعر بعلامة نسقية مضمرة تكمن أولاً:

في استلاب الذات وسلب حقها في العيش بكرامة، وثانياً استلاب المكان بكل مهيمناته الوجودية، وافتقاره إلى الحيوية والإقامة.

فضلاً عن ذلك نسقه المضمر (دار الإمارة)؛ ليرمز بصورة إيحائية مضمرة إلى الأغنياء الذين ينعمون بالنعيم ورفاهية العيش في حين الفقير يكابد الفقر والبؤس والحرمان، لتحمل هذه الحيوانات إيحاءات تأويلية مكثفة؛ تكشف بصورة دقيقة عما يجيش في أغوار الذات المعذبة نفسياً من بؤس ويأس، وعدم قدرتها على الانسجام والتوافق مع مهيمنات المكان، وافتقاره المعدم والمستلب لمكنونات الذات جسدياً ونفسياً؛ لتتمظهر هذه الإيحاءات والتأويلات المتعددة في الصور الدلالية الترميزية؛ التي رسمها الشاعر بإتقان وتنظيم منسق بارع للحيوانات الماكثة في بيته المعدم.

ويتتابع في قوله واصفاً استلاب المكان وغربته الموجعة:

وأقام السنّورُ في البيت حَوْلاً ... ما يَرَى في جوانب البيت فـاره

يُنْغِضُ الرَّاسَ منه من شدّة الجو ... عِ وعــش فيــه أذى ومراره

قُلتُ لَمّا رَأَيتُهُ ناكِسَ الرَّأ ... س كَئيبا في الجَوفِ مِنهُ حَرارَه

وَيَكُ صَبراً فَأَنتَ مِن خيرَةِ سَنَّ ... ورٍ رَأَتهُ عَيناي قطّ بَحّارَه

قالَ لا صَبرَ لي وَكَيفَ مَقامي ... بِبُيوتِ قَفرٍ كَجَوفِ الحِمارَه

قُلتُ سِر راشِداً إِلى بَيتِ جارٍ ... مُخصِبٍ رَحلُهُ عَظيمُ التِجارَه

وَإِذا العَنكَبوتُ تَغزَّلَ في دنَّي ... وَحُبّي وَالكوزُ وَالقِرقارَه

وَأَصابَ الجُحَامُ كَلبي فَأَضحى ... بَينَ كَلبٍ وَكَلبَةٍ عَيّارَه[١٥]

يصل خطاب الشاعر السيكولوجي إلى أقصى مستوياته التعبيرية المكثفة، وذلك في حواره الدينامي الفعال مع السنّور الذي أقام في البيت حَوْلاً كاملاً؛ ظناً منه أن يرى فأراً فيتخذه طعاماً، فخاب ذلك الاعتقاد والظن؛ الأمر جعله ناكِسَ الرَأس كَئيباً في الجَوفِ من قهر الجوع وألمه ، ويبدو أن الشاعر قد اتخذ من السنّور قناعاً؛ ليبث عبره معاناته واعتراضه على السلطة السياسية والاجتماعية معاً، وذلك بوساطة الحوار الخارجي الفعال، أي أن

الشاعر يحاور السنّور في فضائه المكاني المستلب، إذ يعمد إلى رسم صورتين تأويليتين: الأولى: دعوة السنور إلى الاتصاف بالصبر فهو الوفي الذي لازم الشاعر في اضنك ظروفه واشدها؛ ليجيبه ذلك السنور جواباً ايديولوجياً كامناً في جوعه المهلك، وأن صبره وتحمله قد نفذ في بيت يفتقر إلى سد رمق الجوع واصفاً إياه بجوف الحمارة المعدم .

وأما الصورة التأويلية الثانية تتمثل في عطف الشاعر، والشفقة عليه من ذل الجوع والحرمان؛ ناصحاً إياه بالانتقال إلى بيت جاره التاجر الثري؛ لينعم برفاهية العيش وإدامة حياته. وهنا رمز الشاعر بعلامة تأويلية منفردة بخصائص الاستلاب المكاني ومكامنه الوجودية، أي أن الشاعر قد أشار إلى الجار الغني المتمتع بترف العيش ورفاهيته؛ ليرمز بصورة نسقية مضمرة إلى التفاوت الطبقي بين أفراد المجتمع، فالأغنياء والامراء لا يبالون بجوع الفقير وحرمانه، إنه ترميز موحي إلى سلطة الحكام، وسياستهم التعسفية في فرض سطوتهم ونفوذهم على الفرد الواقع تحت حكمهم وسيطرتهم، ومحاولتهم الساعية إلى سلب وجوده، وقدرته على العيش بكرامة بعيداً عن الاستجداء وذل السؤال.

وبعد ذلك يتواشج تعيين دوافع الاستلاب المكاني، وأبعاده الدقيقة مع الصورة الواقعية لحالة أبي الشمقمق الفقيرة المعدمة الصانعة بوساطة دينامية المكان، وتداخله مع صراع الذات وعذابها النفسي في هيمنة الفقر والجوع والبؤس، إذ يرسم الشاعر النهاية التصويرية العاكسة لتجربته الواقعية المستلبة الكامنة في بيته، بقوله: (وَإذا العَنكَبوتُ تَغَزَّلَ في دنَّي وَحُبّي وَالكوزُ وَالقِرقارَةِ)؛ لتنهض هذه النهاية على صورة إيحائية منفردة؛ تتمركز في دلالتين تتمثل الأولى في صورة العنكبوت الذي يغزل خيوطه في المكان المفتقر إلى فتات الطعام، وأما الثانية في صورة الكلب الذي اصابه الجُحام من ضيق الحال ومعاناة الفقر، وعليه يمكن القول : إن هذه النهاية التصويرية المكثفة النابعة من صميم الواقع الاجتماعي المستلب؛ تتواشج بالدينامية المنبعثة من الصراع الذاتي في الفضاء المكاني المستلب من جهة، والمشاهد الواقعية المعززة لحالة الشاعر البائسة والمفتقرة إلى سد رمق الجوع من جهة أخرى.

إن الاستلاب المكاني هو تراكمات انساق اغترابية عديدة كالاجتماعي والشعوري الذاتي، وعليه فإن ارتباط احاسيس الشاعر ونوازعه الذاتية بالمكان الواقعي، أي في مجتمعه والتأثر به والتواشج معه امرٌ مسَّلم به . وما يمثل ذلك الشاعر المهمش الحمدويّ، الذي واجه استلابه المكاني مواجهة الانكفاء على الذات والهروب من واقعه البائس المعدم، إذ يقول:

مـن كـان في الدُّنيا له شارةٌ   فنحنُ مـن نـظّـارةِ الـدُّنيا

نَرْمُقها من كثبٍ حَسْرةً   كأنّنا لفظٌ بلا معنى(١٦)

ففي النص الشعري نجد أن الفضاء المكاني تابع لما هو معاش على وفق تجربة الذات الشعورية المستلبة، وهذا ما يسمح للمكان بأن يتجرد من كونه تشكيل هندسي حسي، ويجعله يبرز بشكل دقيق في معطيات اجتماعية شعورية خاضعة لاستلاب الذات وتهميشها. وهو ما يعني الافصاح عن المكونات التوترية المودعة في خفايا الذات المهمشة كصورة إيحائية مكثفة لحالة الشاعر القاسية؛ التي يكابدها في مجتمعه، وإحساسه بالاغتراب النفسي وهي ((حالة يشعر فيها الفرد بالوحدة أي الانفصال عن الآخرين، وهي حالة يصاحبها معاناة الفرد لكثير من ضروب الوحشة والاغتراب والاغتمام، والاكتئاب من جراء إحساسه بالوحدة))(١٧)، وتصدع علاقات التفاعل مع مجتمعه، وكأنّه ليس فرداً منه بقوله: (مـن كـان في الدُّنيا له شارةٌ فنحنُ مـن نـظّـارةِ الـدُّنيا)، فليس له من معالم الدنيا إلا المشاهدة والمراقبة على متعها وملاذها، والتأسف والأسى يتحكم في مكامنه الوجودية، كأن وجوده الذاتي في مجتمعه لفظٌ بلا معنى، أي جسد من دون كيان وأثر حقيقي له حضوره الجوهري في مجتمعه والتفاعل مع أفراده، وحقه في اتخاذ القرار وتقرير مصير حياته.

ومن هنا تتجسد دلالة الاستلاب المكاني في لا وعي الشاعر؛ ليشعر بالضيق والضياع والاغتراب الذاتي في كنف مجتمعه بكل طبقاته، ولاسيما طبقة الحكام والأمراء التي لا تأبى لوجوده وله الحق في التمتع بنعيم الدنيا ومرحها، ومن ثم تتضح أصداء هذه الدلالة السيكولوجية في أغوار الذات المهمشة ؛ لتعبّر عن استلابها المجتمعي وشعورها الانفعالي العاطفي، وهي تتعامل مع وجودها في فضائها المكاني؛ بوصفه مكاناً مستلباً تتحقّق فيه غربة الذات وآلامها السيكولوجية. وعليه فالاستلاب المكاني بتحولاته التأثيرية في وعي الذات ومجاهلها؛ يقوم بالإبلاغ عن حقيقة جوهرية تقتصر على ما يعتمل أغوار الشاعر من إحساس بالغربة والعزلة، والاضطهاد النفسي في مجتمعه، وعدم قدرته على التفاعل والتواشج مع الآخرين، وكأنه يشعر بأنّه ذات لامعنى لها في وجودها وحياتها، بل انفصالها التام عن عالمها وكيانها المجتمعي .

إذ تتصف العلاقة بين الذات والمكان بالارتباط والتواشج، فلا تتحقق الذات في مكامنها الوجودية والتفاعلية من دون مكان يحدد خصائصها السيكولوجية والذهنية، أي أنَّ هذه العلاقة ((تتم وفق قانون الفعل ورد الفعل ، إذ بقدر ما يؤثر المكان ويحفز في الإنسان خصائصه وملامحه، فإنه ينحفر _ المكان _ بالإنسان وفعالياته

المستمرة))[١٨]. وما يمثل ذلك الشاعر المهمش الأحنف العكبري الذي يصف المكان وصفاً شعورياً رامزاً إلى حالته الاجتماعية المأساوية، إذ يقول:

سَهِرْتُ وما مثلي يَنَام ويَرْقدُ　　وفي القلب منِّي جَمْرَةٌ تَتَوقَّدُ

سَهِرْتُ ولم أطْعَمْ من الغمضِ لذَّةً　　وكَيْفَ هُجُوعي والحَشَا ليس يَبْرُدُ

وذَاكَ لأني سَاكِنٌ فِي غُرَيْفَةٍ　　وأفْرِدْتُ فيها والغريبُ يُفَرَّدُ

مُطَبَقَةً كالسِّجْنِ بَل هو دُونَها　　مَعَايِبُها فِي كُــلِّ يَوْمٍ تَزَيَّــد

عقارب فيها طائراتٌ وَوُقَّعٌ　　وحيَّاتُ سُوء في السُّقُوفِ تردَّدُ

وزنبورها فيها مُقارِنُ صَرْصَرٍ　　وطَبُوعُها باللسع لِلبَـقِّ يُسْعِدُ[١٩]

إنَّ سلطة المكان في النص الشعري قد تركز تشكيله النسقي المنظم بين المكامن الوجودية المتحكمة في تأزم الذات وألمها النفسي، والانتماء إلى عوالم الواقع الاجتماعي المتأزم بخلفياته المتباينة ذات الأطر السياسية والثقافية ؛ ليتجلى الاستلاب المكاني في تجربة الذات الشعورية السيكولوجية في علاقتها المتأزمة بالمكان بكل تأثيراته الهندسية والنفسية، أي أنّ مشاعر الذات واحساسها بالضيق والتأزم؛ قد خلقها وصنعها فضاء مكاني محدد بأبعاده وطوبوغرافيته، والذي يتمثل تمثيلاً دقيقاً في الغرفة البائسة التي يسكنها الشاعر، ويكابد العيش فيها تحت هيمنة الفقر والجوع والفاقة ، الأمر الذي جعل الشاعر يتوقد ألماً وحزناً وعدم قدرته على النوم والرقود إزاء مكانه البائس، والمفتقر لمرتكزات الإقامة والعيش، ويتضح ذلك بقوله: (وذَاكَ لأني سَاكِنٌ فِي غُرَيْفَةٍ وأفْرِدْتُ فيها والغريبُ يُفَرَّدُ).

يبدو أنّ العلاقة بين الغرفة والذات المهمشة؛ تنخلق على وفق المقابلة السيكولوجية (المثير والاستجابة)، إذ بقدر ما تؤثر الغرفة، وهي بمثابة سجن مغلق تجتمع فيه العقارب والحيات والحشرات اللاسعة كمثير إدراكي حسي؛ تؤدي إلى استجابة شعورية قاطعة، تتمركز في رغبة الذات الشديدة في التخلص من عذابها ومعاناتها القاهرة في الغرفة الوضيعة والمعدمة، التي تشكلت بواعثها وتمظهراتها الحسية عبر تهميش الذات الشاعر واستلابه في مجتمعه نفسياً وشعورياً؛ ويكمن هذا الاستلاب والتهميش في العبارات الترميزية المنفردة بدلالتها ومعناها (سَهِرْتُ جَمْرَةٌ تَتَوقَّدُ، ولم أطْعَمْ من الغمضِ لذَّةً، وكَيْفَ هُجُوعي ، سَاكِنٌ فِي غُرَيْفَةٍ مُطَبَقَةً كالسِّجْنِ)؛ ليعبّر

الشاعر في نصه الشعري تعبيراً سيكولوجياً مؤثراً عما هو كامن في أغواره، ومجاهل ذاته من إحساس شعوري متأزم، وذلك بوساطة علامات دلالية إيحائية مكثفة التي توحي ((باطنياً بصورة التهدم النفسي الذي طالما أرق مضجعه، الأمر الذي اشعره، بغربة النفس، لا غربة المكان، فحسب، فتناول صورة التهدم بنفسية متألمة))[٢٠] إزاء واقعه الاجتماعي المستلب.

وعليه يمكن القول: إن المكان غريفة بصيغة التصغير قد جسدت مركز الاستلاب الذاتي وتأثيره الفاعلي؛ لأنها قد تفاعلت مع سيكولوجية الذات المهمشة ووعيها الباطني؛ تفاعلاً يوحي بتمركز المكان بأبعاده الهندسية والنفسية والاجتماعية ؛ لتتجاوز هذه الأبعاد الصور الحسية المرئية إلى عوالم الذات المهمشة، ومشاعرها العاطفية؛ المتأججة إزاء الفقر والجوع والحرمان، ومن هنا قد تجسدت دلالات النص الشعري، وعلاماته التأويلية التي تسهم بصورة كبيرة في انفتاح النص الشعري، وتوجيهه توجيهاً ينسجم مع غايات الشاعر، ومقاصده التعبيرية في نقل تجربته الشعورية، ومعاناته المريرة في واقعه التعيس.

هناك اتصال عضوي ذاتي بين العالم الداخلي للذات المهمشة، وعالمها الخارجي، ((وهي علاقة تقتضيها ظاهرة الاستلاب، فالاستلاب الوجودي بوصفه وجوداً خارج الماهية وشعورا بالخواء الداخلي يحيل إلى خواء العالم الخارجي وجدبه، الذي يبدو مظهرا من مظاهر الحرمان الجسدي الذي يطبق على الأنا المستلبة مثلما يستهلكها حرمانها من هويتها الإنسانية، إن الأنا المستلبة حينما تفقد ملكيتها لكينونتها تفقد – حتما – ملكيتها لعالمها المادي. أنـه خواء وجدب لا حدود له)) [٢١] ويتضح ذلك في خطاب الاحنف العكبري الشعري، إذ يقول:(من البسيط)

العنكــبوت بنت بيتاً على وهن تأوي إليه وما لــي مثلَه وطن

والخنفساءُ لها من جنسها سكَن وليس لي مثَلها إلف ولا سكَن[٢٢]

إنَّ وجود المكان في النص الشعري وتمظهر معالمه ومكامنه؛ يتضح اتضاحاً دقيقاً في مجاهل الذات المستلبة ومكنوناته النفسية؛ خارقاً مسارات غائرة في تهميش الذات واستلابها وذلك؛ لأنَّه الفضاء المكاني الذي يحتضن عمليات التداخل والتناقض بين الذات المهمشة، وعالمها الاجتماعي المؤلم؛ ليبث الشاعر دلالات استلابه المكاني في سياقات نصه وعلاماته الإيحائية المكثفة، أي أن العنكبوت قد نسج من خيوطه بيتاً يأوي إليه؛ ليحتضنه ويستوعبه، فهو بمثابة وطنه الذي يعيش في كنفه ، فضلاً عن أن الخنفساء لها من نوعها سكن وإلف

تلجأ إليه وتستوطن في إركانه، أما الشاعر فهو مهمش منبوذ في مجتمعه ليس له وطن ينتمي إليه، ويشعر بالأمان والاستقرار في مكامنه وعوالمه، فذلك تصوير قاسي مؤلم؛ يرمز ترميزاً مؤثراً إلى اضطهاد الذات واستلابها النفسي، فلا وجود ولا كيان ولا وطن يحتويها ويظمَّها (وما لـي مثلَه وطن، وليس لي مثَلها إلف ولا سكَن).

ومن هنا تصل الذات المستلبة إلى قمة انهيارها وتحطيمها السيكولوجي، وهي تبث ضياعها وتهميشها ووحدتها في خفايا نصها الشعري وانساقه المضمرة؛ ليتحول خطاب الذات الانفعالي، وحوارها الداخلي المونولوجي إلى صورة سيكولوجية معبرة من صور الاحتجاج الاستنكاري، الذي يدل دلالة موحية على عذاب الذات وشعورها التوتري بالاستلاب والتهميش، وإلغاء وجودها وكيانها في فضائها المكاني؛ الذي تتضح أبعاده الحسية والسيكولوجية في أغوار الذات المهمشة واعماقها النفسية، إذ تتصف العلاقة بين الذات والمكان بالتلاشي والانتهاء، أي شعور الشاعر بوطنه وآواصر الألفة التي تربطه بأفراد مجتمعه، تكاد تختفي وتتوارى فلاصديق ولاقريب يوده، وهذا الإحساس المرير بالضياع وعدم الانتماء إلى مكان، ووطن يشعره بالاستقرار وإدامة الحياة؛ يتحول تحولاً اغترابياً نتمكن عبره إدراك شعور الذات الشاعر بألم الاستلاب المكاني والغربة النفسية.

إذ يعمد الشاعر إلى المقارنة بين حاله في وطنه المستلب، وفضاء الحشرات(العنكبوت والخنفساء)؛ التي تملك الألفة والأمان في وطنها. وعليه ينفرد استلاب المكان وتهميشه في إشارات النص الشعري الرامز بإيحاءاته وتأويلاته، عبر توتر الشاعر المهمش وشعوره بالاغتراب والوحدة التوترية في مجتمعه، الأمر الذي جعله يتقوقع في ذاته، وينكفئ في أغوارها كمحاولة للهروب من واقعه الاجتماعي المرير، وهذا نوع من أنواع التعويض السيكولوجي؛ تلجأ إليه الذات المحطمة نفسياً والمستلبة مكانياً عندما تنبذ من مجتمعها، وتفقد الشعور بالانتماء إلى وطن الألفة والاطمئنان والأمان.

يبدو أنّ الاستلاب المكاني وشعور الذات بالتهميش والاغتراب الذاتي إزاء مجتمعها أو فضائها المكاني المحدد له الأثر الفعال والمؤثر في تأزم حالة الذات النفسية وتجربتها الشعورية البائسة وذلك؛ لأن ((أفعال الأنا المستلبة أفعالاً زائفة لأنها غير مرتبطة بإرادة فاعلها، ومن ثم فهي – حقيقة – ليست أفعالاً وإنما ظلال أفعال، فالمستلب لا يفعل وإنما يعكس أفعال الآخر!))[٢٣].

وما يمثل ذلك خطاب الأحنف العكبري في مدينة جنبلاء وما وجده من سكانها من صفات وطبائع لئيمة، أي أن هذا الخطاب الشعري يدل دلالة واضحة ودقيقة على معاناة الذات المهمشة، وشعورها بالاغتراب والاستلاب المكاني، إذ يقول فاصحاً عن نوازعه الذاتية المضطربة:

أَقَمْتُ بجنبلا عشرين يوماً وكُنتُ وَرَدْتُها فَوْقَ اليفاعِ

فَكَادَحْتُ الزَّمَانَ أسى وضُرًّا مُضَاعَ الحَقِّ ذَا أَدبٍ مُضاع

أَذُودُ النَّفْسَ عـن كـم وجـود وأخفـض هـامـي بعـد ارتفـاع

أقارب أَهْلَها وأُزيـل طبعي إلى لـــوم المـــروءة والطبـــاع

وَلَوْلَا لُؤمُهُمْ لَحَفَظْتُ طَبْعي ولكنْ لَسْتُ بالرَّجُلِ المَطَاع

بَلَوْتُ النَّاسَ فِي شَرْقٍ وغـــرب ورُمْتُ العَيْش مـن كـل البقاع

فَلَمْ أَرَ فِي الزَّمان أخس منهم وأروع في العيـانِ وفي السَّماعِ(٢٤)

ينطلق النص الشعري بمدلولاته اللفظية والدلالية من ذات مهمشة مستلبة في فضاء مكاني محدد بمكامنه الاجتماعية والنفسية معاً، ويحمل بعداً سيكولوجياً مؤثراً تجاه الذات التي تكابد العيش في هذه المكان (مدينة بجنبلا)، وتتألم من قساوة ساكنيها ولؤم طباعهم، أي أن للمكان أبعاداً سيكولوجية تتداخل تداخلاً دقيقاً مع ((وظائفه الفنية وأبعاده الاجتماعية والتاريخية والعقائدية التي ترتبط بالمكان ولا تفارقه ، حتى أنه يتم استرجاع هذه السياقات والأبعاد عند استرجاعنا المكان نفسه أو ما يرتبط به))(٢٥).

ومن هنا تنخلق علامات السياق النصي، ورموزه الإيحائية المكثفة، وذلك بوساطة صيغه التركيبة الفعلية التتابعية المسندة إلى ذات مهمشة تخاطب خطاباً انفعالياً رامزاً بضمير المتكلم بصورة سيكوسردية؛ توحي بمعالم حالة الذات الاغترابية المأساوية التي جسدت حبكتها وديناميتها؛ تتابعية الأفعال (أَقَمْتُ بجنبلا، فَكَادَحْتُ الزَّمَانَ، أَذُودُ النَّفْسَ، وأخفض هـامي، وأُزيل طبعي)، أي أن الشاعر يسرد تجربته الشعورية السيكولوجية مع أهل مدينة جنبلا بشكل تصاعدي توتري؛ ليسط الضوء على غربته المكانية واستلابه الذاتي، وهو يستشعر بألم قاهر منبعث خارج ذاته بحسية المكان وساكنيه من جهة، وداخل ذاته بتأزم إحساسه الشعوري المتفاقم إزاء انشطاره الذاتي، وضياعه النفسي من جهة أخرى.

وعليه فالعكبري يصف استلابه المكاني وصفاً انتقائياً هووياً؛ ليكشف عبره انفعالاته الشعورية المتأزمة في مكنونات نصه الشعري وعلاماته الإيحائية، وذلك بعد تحول ذاته من موطنه الأصلي إلى مدينة جنبلا وصراعه الفعال والمؤثر مع حكامها وأهلها، التي تتسم طبائعهم باللؤم والانحطاط والخساسة، أما الشاعر فانّه يتصف بالصفات الحميدة والقيم العربية الأصلية، الأمر الذي جعله ذاتاً مهمشة تشعر بالغربة المكانية والاضطراب السيكولوجي، إذ يحس الشاعر بأنّه مستلبٌ من نفسه، وإن ذاته اصبحت مزيفة، وذلك لاضطراره إلى مجاراتهم بلؤمهم ودناءة طباعهم؛ ليتمكن من الصراع والتعايش معهم بمكره ولؤمه. ومن هنا تتمظهر ((تجربة اغترابية كبيرة، ذلك أنَّ معنى أن يكون الإنسان ما يريده الآخرون لا ما هو عليه، ولا ما هو يريده، هو جوهر كلّ اغتراب))[٢٦]، أو استلاب ذاتي.

وبعد ذلك يمكن القول: إن خطاب الذات المستلبة لا يجسد المكان المادي بأبعاده وحدوده الهندسية الثابتة كمدينة (جنبرا) قد مُكث واستوطن فيها. بل أنّه خطاب اسهم اسهاماً واضحاً في تمثيل الآخر (أهل جنبرا)، إذ يسعى الشاعر لرسم صورة المكان في صياغة تعبيرية إيحائية مكثفة، هدفها الأساس يكمن في الافصاح عن الطبائع السيكولوجية المستمدة من ساكني هذه المدينة، بقوله: (فَلَمْ أَرَ فِي الزَّمان أخس منهم وأروع في العيـانِ وفي السَّماعِ)، ومن ثم يرتقي بها إلى تشكيلها في محورين تصورين هادفين، يتمثل الأول في كون هذه المدينة قد وصفت بأنها مكان مستلب معادي؛ تفقد فيه الذات إحساسها بالأمان والسكينة، لترغم فيه على الإقامة والمكوث شاعرة بالانقباض والكراهية والضيق، فهو بؤرة توترية مستنكرة عند الذات فضاءً وسكناً، لذلك علاقة الذات بهذا الفضاء المكاني علاقة انفعالية مضطربة سيكولوجياً وانثروبولوجياً؛ عكست شعورها بفقدان الانتماء والاستقرار، فضلاً عن تشظيها بين مكانها بين ذاتها الاصلية وذاتها المزيفة.

أما المحور الثاني قد تجسد في الصراع المتصاعد ذروته في أغوار الذات الشاعر الذي فرض عليه واقعه الاجتماعي في مدينة جنبلا؛ التعايش مع طبائع ساكنيها؛ بل الانزياح إلى مستوى بخسهم ولؤمهم؛ ليتمكن من إدامة حياته واستمرارها، أي أن المكان يظهر صفات ساكنيه السلبية وطبائعهم المنبوذة؛ عاكساً سلوكياتهم ومواقفهم، بمعنى أن الاستلاب المكاني يمثل تنظيماً نسقياً من الدلالات السلبية المستنكرة؛ المرتبطة ارتباطاً سيكولوجياً بحالة الذات المهمشة المضطربة، ومكامنها الوجودية المغتربة إزاء بؤرة مكانية متجسدة بأهلها وساكنيها؛ قد اسهمت اسهاماً كبيراً في اضطهاد الذات شعورياً وفكرياً، وجعلتها مرغمة في تناقض ذاتها الاصلية، والانفصال عنها في اللاوعي واللاشعوري.

فضلاً عن التقييد بحدود المكان الهندسية، وطبيعة ساكنيه وصفاتهم السيكولوجية من جانب، والدخول مع أهل المدينة في صراع فعال؛ لينتهي نهاية حاسمة مؤثرة وموحية بتشظي الذات وانشطارها بين أمرين: الأول: التحرر من هيمنة المكان واستلابه، ورفضه رفضاً حسياً ونفسياً، والثاني: الخضوع لمكامنه الفضائية ومعالمه الداخلية والخارجية، زد على ذلك الاستجابة لضغطه النفسي واستلابه المكاني من جانب آخر.

ثانياً: الذات المستلبة وتشظي الزمان

الزمن النفسي هو زمن يتجسد تجسيداً منفرداً في المكنونات الشعورية والعواطف والحالات السيكولوجية التي تمر بها الذات المهمشة ، أي أنّه ((نتاح حركات أو تجارب الأفراد وهم فيه مختلفون ، حتى إننا يمكن أن نقول إن لكل منا زماناً خاصاً يتوقف على حركته وخبرته الذاتية))[٢٧]. إذ يتمظهر بصورة دقيقة في خبرة الإنسان الذاتية وكما تشعر به وتراه الذات في ضوء المواقف، والأفعال الدينامية التي هي فيها[٢٨]. وأنَّ الزمان هو الصورة المميزة لخبرات الانسان، وتجاربه الشعورية الوجدانية إلا أنَّهُ أكثر شمولية وكلية من المكان بأبعاده وحدوده الهندسية، وذلك لعلاقته بالعالم الداخلي للأفكار والانطباعات والانفعالات الهووية التي لا يمكن إن نزيد عليها نطاقاً مكانياً محدداً، والزمان أكثر صورة حضورية مباشرة من المكان أو من أي مفهوم عام آخر كالجوهر أو السببية[٢٩].

وقد حمل مفهوم الزمان كل المترادفات العلاماتية التي توحي بتلك الدلالة وفعاليتها المباشرة في توليد تحولات جديدة قد تسير بالإنسان باتجاه التهميش والاستلاب والفقد كالدهر والأيام والسنين، وقد أضحى الصراع مع الزمان من الهموم التي أرقت الذات واهلكتها في اغترابها واستلابها الوجودي[٣٠]. أي أن الارتباط بين الذات والزمان أكثر غموضاً وتعقيداً من الارتباط بينه وبين البؤرة المكانية، ومن ثم فتأثيره السيكولوجي عليه أكثر غموضاً أيضاً؛ وذلك؛ لأن الإنسان قد يرى شيئاً محدداً أو يشعر به بإحدى حواسه الخمس أو بأكثر من حاسة واحدة، بينما يستلزم الشعور بالزمان إلى الحاسة الذهنية أو الفكرية[٣١].

ومن ذلك فإن الاستلاب الزماني قد مثّل ((نمطاً آخر من أنماط الاغتراب حين تناول الزمن بوصفه قوة فاعلة مؤثرة في الإنسان، إذ بات الزمن يمثل محوراً أساسياً في تشكيل ظاهرة الاغتراب الإنساني، وذلك من خلال فقدان : التوافق النفسي والانسجام الذاتي مع اللحظة التي يحياها الفرد، وظهور حالة من التوتر بفعل تلك التبدلات النفسية، وربما تغيُّر المعالم المادية للمكان؛ لأن الزمن يمثل قوة فاعلة تشمل الإنسان والمكان معاً))[٣٢]. وأكثر ما يكون شعورنا بسلطة الزمان في نوبات الأسى والحزن البطيئة، سواء كانت ناتجة عن سأم أو شك أو خوف أو أي

نوع من العذاب النفسي ينقل دافعه في ذاته ولا ينجم عن سبب خارجي، بل عن الآلام الجذرية للبواعث الرئيسة التي يرتكز عليها الوجود الإنساني بمكامنه وعوالمه. ذلك الوجود الذي يتأسس أصلاً على خلفية من الفراغ واللاشئ[٣٣].

أي يتمثل الزمان ويشعر به في مواقف الذات وتجربتها العاطفية الانفعالية، ((فغريزة المحافظة على الذات تعمل على الوجه الآتي : أتألم عندما أشعر بالفناء، افرح عندما اشعر بالبقاء في الوضع الاول تنطوي علي الخدعة، فتتراءى لي الأشياء والاشخاص والافعال وقائع في عالم حقيقي. بينما اكتشف في الوضع الثاني انها اطياف ومهازل وأوهام في عالم خرافي))[٣٤] .

إذ يناجي الشاعر المهمش ذاته ويبث شكواه من الزمان وحوادثه، تدفعه حياة البؤس والحرمان والمصائب التي ألمت بالفرد والمجتمع، فضلاً عن الفشل المتكرر نتيجة الضجر من طبائع الناس وسلوكياتهم وأخلاقهم، أو تلك المحن والأحزان التي تواجه الشاعر فيضيق بالحياة ذرعاً، ومن هنا قد حمل الزمان الكثير من اضطراباته النفسية المنخلقة بفعل الانتكاسات والاخفاقات التي لا تنسجم مع تحقيق الغايات والأهداف، أي أن الزمان هو الذي ينظم الأحوال، والمسؤول عن تلك الاخفاقات والتقلبات التي رافقت سلوكيات الناس وميولهم بما لا ينسجم وأهواء الشاعر وطبائعه وأهدافه.

وعلى وفق ذلك غدا الشاعر المهمش يبث لومه واحتجاجه على نوائب الزمان ومصائبه فضلاً عن ذلك يفرغ غضبه ونقمته عليه ، وذلك عبر نصوصه الشعرية التي بين مكنوناتها ومجاهلها عذاب النفس وقساوة الواقع الاجتماعي، والتي انخلقت وتشكلت بفعل عدم توافق الذات مع الزمان بأحواله وتقلباته المختلفة ، الأمر الذي جعل تلك الذات تغترب زمانياً وتستلب سيكولوجياً، فهذا الاغتراب والاستلاب قد خلق نتيجة الإحساس الأليم لواقع تلك النكبات والأحوال المتأزمة العنيفة؛ حين رُدَّ عاقبتها وفعلها إلى الزمان. ويجسد الشاعر المهمش في الوقت ذاته وثيقة استنكار على ذلك الواقع الاجتماعي التعيس الذي عاش تحت وطأته وظلاله وهيمنته، ومن هنا قد وصف الزمان بالظالم وغير العادل، حين عُدَّ استبداد الكريم من أهم خصائصه وسماته.[٣٥]، وما يمثل ذلك الشاعر المهمش ابن الحجاج الذي يبث شكواه وآلامه من الزمان وتقلبات أحواله، إذ يقول بصرخة انفعالية تعجبية:

عجبت من الزمان وأي شيءٍ عجيبٍ لا أراه من الزمانِ

أتأخذ قوت جرذانٍ عجافٍ فتجعله لأوعالٍ سمانِ[٣٦]

إذ يتمثل النص الشعري في مجموعة من الدلالات والعلامات التعبيرية التي تتسق تبعاً لأفعال تركيبية تعجبية بقوله: (عجبت من الزمان وأي شيءٍ عجيبٍ لا أراه من الزمانِ) لتؤدي هذه الأفعال الموحية باستلاب الذات وتهميشها، وظيفتها التأثيرية التفاعلية الكامنة في الصورة السيكوفنية التمهيدية بوساطة الفعل التعبيري (عجبت) ذات دلالة إيحائية مكثفة التي تتتابع وتيرتها التعجبية التنبيهية الاستنكارية وتتصاعد تصاعداً صارخاً بانفعال الشاعر وقساوة واقعه الاجتماعي المستلب؛ لتترجم هذه الصورة السيكوفنية المكثفة ألم الشاعر المهمش وانكساره النفسي، ليعبر تعبيراً شعورياً غارقاً في الهم والحزن عن تناقضات الزمان وتضارب أحواله، فهو يبين ويوضح عبر دلالات نصه ومعانيه الإيحائية بأن عجائب الزمان شديدة وعنيفة، ومنها الضرائب التي تأخذ من الفقير المعدم البائس الذي لا يملك قوت عيشه، وإدامة حياته لتعطي هذه الأموال إلى الأغنياء المترفين الذي ينعمون بحياة النعيم والرفاهية والاستقرار.

وعليه فمشاعر الذات الهووية التحولية بتناقضات زمانها وتقلبات أفعال حكامها؛ ((تقوم بفعل ابلاغي له مرجعية واقعية أو شبه واقعية ، وموضوع لأنها تغدو في مجملها غاية أو هدفاً ، والتعبير عن هذه الذات التي تقتصر على ما يعتمل داخل النفس الإنسانية وإنما يتعداها إلى الخارج))[٣٧]. من شحنات عاطفية توترية مودعة في مكنونات النفس ومجاهلها الخفية، إزاء معارضتها ورفضها لواقعها الاجتماعي المستلب البائس.

ومن هنا فقد تأسس السياق النصي على صورة تقابلية تأويلية بين الفقر المعدم والغني المترف،(أتأخذ قوت جرذانٍ عجافٍ فتجعله لأوعالٍ سمانِ)، إذ يتمظهر هذا التقابل المكثف برموزه وإشاراته التعبيرية تمظهراً آلياً تصويرياً تقابلياً ومنتظماً في الذهن، قد جسد واقع الشاعر المضطهد بسلطة حكامه، وتناقض طبقات مجتمعه المؤدية لتشظي الزمان وتباين عجائبه؛ ليتحقق بذلك بناءً نصياً متسقاً من الصور هادفة الرمز والإيحاء عبر ما يبتغيه الشاعر من مقاصده التعبيرية، التي يسمح تمثلها وتشخيصها بالمرور إلى تجربته الواقعية المتأزمة بتراكماتها النفسية؛ مروراً شعورياً كاشفاً سلبيات السلطة الحاكمة وسياستها التعسفية، أي أنّها تسعى جاهدة على تعزيز ايدولوجيتها القاهرة، ومحاولة استلاب ذاتية الفرد الواقع تحت هيمنتها ونفوذها، وذلك باستئصال أيديولوجيته وتحطيم ذاته وإحباطه عبر اتباعها سياسة التجويع والحرمان والبؤس، لتتمكن من السيطرة على ذهنه وتفكيره، وتسييره تجاه ما تريد وتبتغي، وعليه تكمن سياستها التعسفية الاستبدادية في سلب كيان الفرد ووجوده الحقيقي عبر تقييده، وجعله يكابد العيش في الفقر وذل من جهة، وتركيز سلطتها واثبات سطوتها بتهميش الفرد واستلابه مكانياً وزمانياً من جهة أخرى.

يبدو أن الشاعر المهمش يتعامل مع الزمن بصورة سيكولوجية منفردة، إذ ((نجده يتعامل معه بإحساسين، احساس ذاتي محض حيث يصير الزمن جزءاً في الذات وصورة في الداخل، فيدركه إدراكاً بايولوجياً صرفاً ، وإحساس واقعي حيث يصير الزمن جزءاً في الاشياء وواحداً من الظواهر فيدركه ادراكاً بعدياً وتصير هناك مسافة بين الشاعر والزمن ذاته. وفي الحالتين ، في الإحساسين ، يجسد الزمن حالة خوف لدى الشاعر))[٣٨] . الخوف والقلق الذي يسببه الزمان عندما يكون جزءاً ذاتياً دينامياً هو قلق الشاعر من نكبات الزمان وتقلبات أحواله، إذ يقول ابن الحجاج شاكياً تشظي الزمان ومعبراً عن وحدته واستلابه الذاتي:

وَأَخْلَقَنِي الزَّمَانُ وَكُنْتُ غَضَاً فَوا أَسَفاً عَلَى الغَضِ الجَدِيدِ

وَأَتْعَبَنِي اخْتِلَافُ السَّعْيِ فِيهِ بحالي في النُّزولِ وَفِي الصُّعودِ

فَيَوماً فِي ذُرَى الْأَجْيَالِ أَرْقَى وَيَوماً خَدُّ جَدِي فِي الصَّعِيدِ

فَوا عَجَباً لِقَلْبِي كَيفَ يَبْقَى أَمِنْ صَخْرٍ تُراهُ أَمْ حَدِيدِ[٣٩]

إن استكناه النص الشعري بكل دلالاته وعلاماته التأويلية المكثفة نجد أنّه قد تأسس وتشكل على ألم الذات، واستلابها السيكولوجي الهادف بتشظي الزمان وتوالي نكباته، إذ يستهل الشاعر استهلالاً استنكارياً احتجاجياً يبث عبره مقاساته من الواقع وشكواه من الزمان بقوله: (وَأَخْلَقَنِي الزَّمَانُ وَكُنْتُ غَضَاً فَوا أَسَفاً عَلَى الغَضِ الجَدِيدِ) ؛ متبعاً خطاباً ميلودرامياً قاصداً ذلك؛ لتوضيح حاله المأساوية بصورة دقيقة في تقلبات الزمان؛ وتوالي مصائبه، وعليه يتجلى تشظي الزمان وتبدل أحواله في علامات إيحائية مكثفة؛ رامزة إلى الآلام والمرارة التي تنتاب الذات المستلبة إزاء واقعها الاجتماعي الذي يتحكم الزمان في تسيرها واضطراب وضعيتها وتغيرها، ليتراكم الألم والعذاب والأسى في دواخل الذات واغوارها؛ فالألم لا يقتصر على الجسد بل قمة الألم في النفس وعذابها، أي أن ((كل ألم في الجسد يصاحبه ألم في النفس... أن الألم لا يمكن أن يكون حياديا، لا يمكن أن تصاحبه مشاعر محايدة ، لا يوجد ألم بلا معنى، أو بلا مغزى . ولهذا فالألم هو خبرة نفسية تجربة سيكولوجية تشتمل على الاحساس بالمعاناة، وترتبط بمتاعب الجسد وعذابه))[٤٠]؛ لتتوالى على الذات المستلبة المصائب وتتصاعد لتحدد تغيرات الزمان مصير الشاعر وتوجه قدره وحياته.

وتأسيساً على ذلك يمكن القول: إن لعبة الأقدار وتقلبات الزمان قد اسهمت اسهاماً كبيراً في إرهاق الشاعر وانهاك قواه؛ بتلاشي سعيه وجهده، وذلك بفعل تحول حاله واضطرابها ما بين النُّزولِ والصُّعودِ، فضلاً عن

ذلك ما فعلته تحولات الزمان المصيرية من نكبات ومصائب قد حلت على الشاعر إزاء الفقد فقد العزيز، وتحديد القدر وتوجيه المصير. وببيان لتقلبات الزمان واستثارة حوادثه ومحنه امتلأت الذات بعذاباتها وانكسارها النفسي، فغدت توجه تساؤلاً استنكارياً تعجبياً فائضاً من ذات مستلبة تقاسي أسى الزمان وتشظيه، وتعاني مرارة تحولاته المصيرية، بقوله: (فَوا عَجَباً لِقَلْبِي كَيفَ يَبْقَى أَمِنْ صَخْرٍ تُراهُ أَمْ حَدِيدِ)، أي يتساءل الشاعر متعجباً كيف لذاته أن تتحمل وجع الأيام وعنف الزمان، أقلبه صخر أم حديد؛ ليوضح عبر الاستفهام التعجبي الخارج عن معناه الحقيقي إلى التعجب والاستنكار تشظي الزمان وسطوته، ليتمكّن الشاعر من صياغة ألم ذاته المستلبة وانفعالاته الهووية المتوهجة في قالب تساؤلي تعجبي؛ ليثير بذلك أسلوباً استنكارياً رافضاً الخضوع لحركة الزمان وتحكمها في تقرير مصيره وقدره.

إذ تشتد حال الشاعر المهمش المأساوية وتتفاقم الآمه وعذابات نفسه وينال منه الزمان، فتتصاعد نظرته السوداوية ووحدته السيكولوجية، ولاسيما حين يشارك الزمان اغترابه واستلابه، فيطلق صرخات ألم استغاثة حمّلها أنينه وتألمه التي فرضها عليه طوق الاستلاب حين كبّله به الزمان، علّ صرخاته تلك تجد لها صداً يخفف حياة البؤس والحرمان التي يعيشها ويكابدها في مجتمع لا يبالي بحالته المعدمة وحدته النفسية [٤١]، وما يمثل ذلك بصورة دقيقة ومؤثرة الشاعر المهمش الأحنف العكبري الذي يواجه اعظم مصيبات الزمان الا وهي ألم الفقر وذل السؤال والاستجداء، إذ يقول:

وَجَدْتُ مُصيبَاتِ الزَّمَان شَدِيدَةً وَأَعْظَمُها صَبري على مَضَض الفَقْر

رميت بجد ناقص وبهمَّةٍ تَفُوقُ الثُّرَيَّا أو تَحِلُّ معَ النَّسْرِ

ولي مثلُ ما للنَّاس من شَهَوَاهُم وكَفِّيَ صِفْرٌ مِن نُضَارٍ ومن تِبْرِ

أَرَى القَبْرَ خَيْراً للفَتَى مِنْ حَيَاتِه صَحِيحاً سَلِيماً وهو ميت بـلا قبر[٤٢]

المتأمل لهذا النص الشعري يجد أن علامات الإيحائية والدلالات التعبيرية ترمز ترميزاً دقيقاً إلى تشظي الذات وانشطارها السيكولوجي منذ الاستهلال الانتقائي الشعوري بقوله: (وَجَدْتُ مُصيبَاتِ الزَّمَان شَدِيدَةً وَأَعْظَمُها صَبري على مَضَض الفَقْر)، فالأحنف العكبري يجد أن من أشد وأعظم مصيبات الزمان هو صبره على الفقر وتجرعه مرارة الجوع والحرمان ، ومن هنا تتمظهر عاطفة النص وسياقاته الهووية تابعة لما هو معاش على وفق تجربة شعورية ذاتية متأزمة، وهذا ما يسمح للإحساس التوتري بأن يتعرى من عالمه بوصفه شعوراً إدراكياً، ويضعه

في امكانات اجتماعية ثقافية تمنحه علاماته وإشاراته الدلالية؛ التي تصبح محوراً لهيمنة الزمان وسلطته الرامزة بشكل كبير إلى واقعية النص واتساقه الدلالي المنتظم؛ المتمركز في استلاب الذات وتشظي زمانها إزاء عالمها الاجتماعي المعدم تحت هيمنة الفقر والبؤس والفاقة، الأمر الذي يمنح السياق النصي المتواشج مع صراع الذات وانفعالاتها العاطفية الدينامية والحركة والتحولية.

وتتمظهر سلطة الزمان ومصائبه بشكل حسي شعوري بقدر ما يتم الكشف عنها عبر الصورة السيكولوجية للذات المعذبة والمحطمة نفسياً واجتماعياً، ومكنونات النص وخفاياه تفصح عن صراع الذات وانكسارها ، وذلك في تنسيق صوري منفرد يتداخل تداخلاً دقيقاً مع صرخة الذات المضطهدة الرافضة لواقعها البائس، والدالة دلالة واضحة على تشظي الزمان وتواتر مصائبه ونكباته، ولاسيما مصيبة الفقر والجوع، فيفصح الشاعر عن معاناة صبره على الفقر ومكابدة عذابه وألمه.

وعليه فقد تكاثفت المؤثرات التوترية الانفعالية في النص الشعري وتواشجت؛ لتنخلق نتيجة لذلك النظرة السوداوية للذات المستلبة والمستشعرة بألم حياتها المريرة ويأسها من وواقعها المعدم المتحكم في مكامنها ومصيرها الوجودي إذ تكون ((الدلالة النفسيّة لليأس هي شعور المرء بأنّ الخارج أقوى من الداخل أو أنّ العائق أعظم بكثير من أن تواجهه الإرادة))[٤٣]، ومن هنا غدت الذات المستلبة تكابد هذا الواقع وعجزها امام هيمنته وسلطته. فما اتسم به الشاعر من حظ ناقص ومعدوم وبهمَّةٍ جادة (تَفُوقُ الثُّرَيَّا أو تَحِلُّ معَ النَّسْرِ)، ليعبر تعبيراً إيحائياً مكثفاً يكمن في أنّه إنسان وله ما للناس من العيش بكرامة ورفاهية وتحقيق غاياته وأهدافه، الا أن حظه الشؤم وكفّه صفر من المال، لا يعينه على تحقيق وجوده وتحديد مصيره.

ومن هنا يعدّ استلاب الذات وتشظي زمانها في السياق النصي؛ أنّه الفقر والحالة البائسة المعدمة التي تعيشها الذات وتقاسيها، يمكن تجسيدها انطلاقاً من صرخة الذات المستلبة بلغة حسية متألمة، زد على ذلك الأفعال التوترية العاكسة لحدة اضطراب الذات وتنكيلها النفسي المؤلم، الذي يتسق بصورة إيحائية منتظمة ومنفردة في علامات ترميزية مقصودة تبعاً لحالة الشاعر ومواقفة المتأزمة المتمثلة في بنائية النص اللغوية والدلالية وفي فضاء سيكوثقافي منفرد. وذلك؛ لأن تجسيد النص الشعري، وتمظهر أبعاده وصوره السيكوفنية؛ يرتكز شمولياً على الشاعر المهمش في التعبير عن تجربته العاطفية الإدراكية، وبثه احاسيسه الشعورية المتأزمة الرامزة إلى بؤس واقعه الاجتماعي، واستلاب ذاته بصورة حسية وإرادية.

وفي تأجج عاطفة الشاعر وانفعاله التوتري؛ ليتمنى الموت، أي قبر يخفيه خيراً من حياته المعدمة، فهو ميت بلا وجود ولا كيان ولا شعور بالحياة حياة الكرامة والرفاهية، إنسان عاجز فاقد لذه العيش هائم في الفقر وقهره، ومن هنا يبتغي الموت وينشده، وذلك للنجاة من حالته الاجتماعية المفتقرة إلى مقومات العيش وإدامة استقراره، فواقعه بائس لا أمل فيه، بقوله: (أَرَى القَبْرَ خَيْراً للفَتَى مِنْ حَيَاتِه صَحِيحاً سَلِيماً وهو ميت بـلا قبر)، وهذا اشد أنواع الرفض رفض الواقع المستلب والاحتجاج عليه، فيتشكل الاستلاب السيكولوجي بكل تجلياته وبواعثه الاجتماعية القاهرة.

وعليه ينخلق موقف الذات من الموت الذي يتمناه الشاعر للهروب من واقعه المميت؛ إنه موقف يكابد تشظي الزمان وانشطاره تشظيه بين عالمين متناقضين متأزمين: عالم الموت وعالم الحياة المضطهدة القاسية، إنّه صراع الذات في أغوارها ومجاهلها بين أمرين كليهما اجاج وحنظل، إذ يفضي الصراع المتأجج إلى اختيار الموت كوسيلة للنجاة والخلاص من ألم الفقر وعذابه السيكولوجي القاهر، ومن هنا يكشف التعبير التركيبي الدلالي (ميت بـلا قبر) عن فاعلية النص الشعري التأثيرية بوساطة قهر الذات واستلابها نفسياً واجتماعياً، فيتمكن الشاعر عبر قدرته التعبيرية عن مكنونات ذاته ومعاناة الفقر القاهرة من تمركز إشارات نصه ورموزه الإيحائية المكثفة بصورة نسقية دقيقة ؛ تبعاً لأدوات وتراكيب لغوية لسانية؛ قادرة على الافصاح والكشف عن أفكار النص الشعري ومعانيه المقصودة.

يبدو أن ذم الزمان واستنكاره صار جزءاً من الملفوظات التي اعتمدها الشاعر المهمش في التعبير عن تجربته الشعورية المؤلمة، وهو في الحقيقة لا يذم ويستنكر إلا تلك القيم السياسية والاجتماعية والاقتصادية عبر صب سخطه على الزمان ونكباته وتقلباته، وقد تشابه كثير من الشعراء في استنكارهم الزمان ونكباته، إذ كلما بؤس عليهم سياط الزمان بتقلباته وويلاته ومصائبه، يبثون تلك النفثات الاستلابية والغربة المكانية عندما بات الزمان عدواً لدوداً لا اطمئنان له [٤٤].

وعليه فقد عمد الشاعر إلى رسم صورة استعارية إيحائية مكثفة يجسد عبرها نكبات الزمان وإحكامه، أي التّركيز على النّظام السيكولوجي الخطاطيّ الذي يُخلق هذا المشهد الصّورة، إذ تتمثل وظيفته النفسية في الكشف والافصاح عن أحاسيس الذات المستلبة بالزمان، وهواجسها الهووية التوترية، لاستدعاء تشظي الذات العاطفي وانشطار زمانها وتوالي نكباته وتقلباته، وعليه فالصورة الاستعارية البارعة قد انخلقت وتشكلت من حالة الشاعر المأساوية واستلابه الذاتي.

ومن هنا فقد شبه الشاعر المهمش الأحنف العكبري الزمان بالحيوان المفترس إذ يقول:

صاحبت دهري بفكر ثاقب وعنًى راق إذا لسبت قلبي عقاربه

كم مرّة رعت خوفا من مخالبه وكم سطا فنكت قلبي مخالبه

كأنّني منه في بحر تلاطمني أمواجُه وتوافيني عجائبه[٤٥]

إن المتأمل في هذا النص الشعري بكل مكنوناته التعبيرية المكثفة يجد تداعياً وجودياً للاستعارة الدلالية المقصودة التي تجسدت تجسيداً دقيقاً، فيما ترمز إليه من تنظيم لغوي إيحائي متسقاً مع استلاب الذات وتشظي زمانها، إذ تتأسس الصورة الاستعارية المعبرة عن حالة الشاعر المضطهدة وانفعاله التوتري على صيغة فعلية بنائية موحية بفعل ماضي مرمز بقوله: (صاحبت دهري بفكر ثاقب وعنًى راق إذا لسبت قلبي عقاربه) ؛ لأن التصوير الاستعاري الفعلي يتمثل في ((وجود تناقض دلالي بين الفعل وفاعله، أو بين الفعل ومفعوله؛ الأمر الذي يؤدي إلى حذف بعض السمات الدلالية للفاعل، أو المفعول التي تسببت في المنافرة الدلالية))[٤٦]؛ ذات علامات تعبيرية مقصودة .

أي أن زمان الشاعر ودهره قد صاحبه ولازمه وأصبح جزءاً من حياته التعيسة القاسية ؛ ليرسم الشاعر صورة استعارية زمانية ؛ تجسد وظيفتها السيكولوجية الكاشفة عن مشاعر الذات المهمشة بالزمان ، وكيف تتوالى نكباته وويلاته، وهنا تتمظهر عاطفة الخوف الهووية الرامزة إلى حالة الذات الشعورية وتحولاتها العاطفية العاملية؛ لاستحضار انشطار الذات الانفعالي وتشظي زمانها، وذلك؛ لأن تجلي عاطفة الخوف وتمظهرها في مكنونات النص وخفاياه؛ يوصف بأنّه دلالة رمزية تعبيرية عما يجول في اغوار الذات المستلبة من أفكار مضطربة ونوازع ذاتية شعورية تنتظم انتظاماً متسقاً بنوائب الزمان وغدره.

إذ يوظف الشاعر المهمش في سياقه النصي استعارة تصويرية مشبعة بعلامات الخوف والتوتر والاغتمام النفسي تتمثل بقوله: (كم مرّة رعت خوفا من مخالبه)، أي يصور غدر الزمان وتوالي مصائبه تصويراً مائزاً ومنفرداً في صورة حيوان له مخالب، ويشكل الدافع الرئيس لعاطفة الخوف وتحولها إلى الرهبة المتأججة في أغوار الذات المستلبة ومجاهلها من تحولات الزمان ووحشيته، فقد اسقط المستعار له الحيوان ورمز إليه بإشارة

إيحائية مكثفة تتمثل بالمخالب، تمثيل استلاب الذات وصروف الدهر والزمان في صورة سيكوفنية متمركزة في الألم والخوف والتوتر.

وعليه فتأثير التصوير الاستعاري السيكولوجي في علامات النص ودلالاته واضح ودقيق لا يمكن تجريده على إبداع المعنى الإيحائي وتكثيفه، وذلك لأنّ الآلية الذي يتوخاها التصوير الاستعاري في تمثيل المعنى ومعنى المعنى الذي تخلقه وتشكله الملفوظات الاستعارية الرمزية الدالة على دلالتين؛ الأولى المعنى الجوهري الظاهر غير مقصود وهو تصوير وحشية الحيوان ومخالبه؛ ليحيل على معنى خفي مضمر مقصود المعنى التأويلي المكثف، تشظي الزمان وتتابع نكباته وتقلباته وويلاته، الذي له تأثير مباشر في استلاب الذات وعذابها النفسي. أي أن الاستعارة التصويرية قد وصفت في السياق النصي بأنّها تتضمن ((مصطلحي الحقيقة والمجاز معاً، لأنه ذو بعدين، بعد خارجي باعتبار استعارية اللغة للفكر، وبعد داخلي هو استعارية اللغة للغة، فالاستعارة الأولى (الخارجية) هي الغاية والهدف، في حين أن الاستعارة الثانية (الداخلية) هي وسيلة وآلية. وهي آلية لا مفر منها))[٤٧].

ولقد كشفت الدلالة السيكولوجية للصيغة التكرارية (كم) بقوله: (كم مرّة رعت خوفا من مخالبه، وكم سطا فنكت قلبي مخالبه) في السياق النصي عن توارد نكبات الزمان ونوائبه وذلك؛ لأن التنغيم التكراري الموسيقي المشبع باضطهاد الذات وتضاخم شعورها بالخوف من تشظي الزمان وقصديته؛ قد اسهم اسهاماً كبيراً في التداخل الإيحائي والشعوري الانفعالي، وجعل من (كم) التكرارية قيمة تأويلية مكثفة؛ تحمل وظائف سيكولوجية بالغة التأثير والدينامية بصورة تعكس حالة القساوة المتجذرة في أعماق الذات المستلبة، فضلاً عن موقفها النفسي المتأزم وهو بهذا المعنى ذو دلالة نفسية قيّمة تحلل أغوار الذات المعذبة، وشدة ألمها من حياته البائسة المريرة، فينهال بالاحتجاج والاستنكار، وذم الزمان ووصفه بالوحشية والعدائية. أنّها يقظة الشعور بالتحطم وانهيار الذات، وهي ينتابها إحساس بسلب كيانها وتقرير مصيرها تحت وطأة صراع الواقع المأساوي وتشظي زمانها.

وفي النهاية تُرسم صورة تشبيهية بارعة قائمة على خلق المعاني الإيحائية المكثفة في بنائية هذا النص الشعري، بقوله: (كأنّني منه في بحر تلاطمني أمواجُه وتوافيني عجائبه)؛ ليتحقق الاتساق السيكوفني بوساطة التأمل في مجاهل الصورة التشبيهية الواقعة بين المشبه الذات المستلبة والمشبه به البحر الذي تصارع الذات مع أمواجه وعجائبه، ففي هذا التصوير التشبيهي البارع دلالة رمزية بتوالي النكبات والنوائب؛ التي تصارعها وتكابدها بكل ألم

وقلق يعتمل الذات في دواخلها ومجاهلها، ويتأزم نتيجة لذلك شعورها النفسي وإحساسها التوتري المتهيج تهيجاً سيكولوجياً إزاء واقعها البائس وتشظي زمانها وذلك؛ لأن مواجهتها لتقلبات الزمان وأزماته جعلها تحس إحساساً قاسياً بالوحدة النفسية والاستلاب الذاتي. أي انهالت على ذلك الزمان الذي تعيش ايامه ولياليه بالذم والتقريع كأنّه حيوان متوحش له مخالب؛ يحاول الامساك بها والقضاء عليها، مما منح السياق النصي عاطفة شعورية جياشة عبر ذات متألمة أمام سطوة الزمان وويلاته من جانب، وإيقاعات منغمة ثائرة لإيصال معاني النص ودلالاته الرمزية المعبرة عن تجربة الذات الشعورية القاسية من جانب آخر.

الخاتمة:

بعد الانتهاء من دراسة الاستلاب بين الفضاء المكاني والانشطار الذاتي في شعر مهمشي العصر العباسي توصلت الدراسة إلى جملة من النتائج الآتية :

١- إن الاستلاب المكاني يتشكل تشكيلاً دقيقاً في النص الشعري من مدلولات سيكولوجية وتركيبية وموضوعية مجتمعة: المدلولات التركيبية والموضوعية تنفرد بعلامات إيحائية مكثفة بخصائص الاستلاب المكاني ومكامنه الوجودية، والتي تتضح ايضاحاً دقيقاً في خطاب الشاعر المهمش ومناجاته لذاته المنكسرة والمنهزمة نفسياً، أي أن هذه المناجاة والافصاح عن الاحاسيس الجياشة والمتأزمة إزاء واقعه الاجتماعي البائس في علاقة سيكوفنية؛ ترتبط ارتباطاً واضحاً بمسارات الفضاء المكاني وحركة الذات المستلبة وافتقارها إلى الاطمئنان والألفة.

٢- إن الذات المهمشة تحاول أن تتحرر من زمكانية الفضاء وقيوده ومتعلقاته، نتيجة لمَّا يفرضه عليها من غربة مكانية واستلاب ذاتي، تبعاً لسيكولوجية المكان، وافتقاره للمقومات الرئيسة للسكن وإدامة الحياة. بل يتحول إلى مكان معادي تفقد فيه شعورها بالأمان وتدخل في عذابات نفسية وصراعات داخلية متأججة في أغوار نفسها تحت وطأة الفقر والجوع والحرمان، فضلاً عن وصفه بأنّه مكان مستلب مهمش يتحقّق فيه استلاب الذات الشاعر آلامه وغربته السيكولوجية. وذلك بتحولاته التأثيرية في وعي الذات ومجاهلها؛ وإحساسه في مكامن المكان الوجودية بالغربة والعزلة، والانهزام النفسي في مجتمعه، وعدم قدرته على التفاعل والتعايش مع الآخرين، وكأنه يشعر بأنّه ذات مهمشة لامعنى لها في حياتها ووجودها، بل انفصالها التام عن كيانها القيمي المجتمعي.

٣- إن الاتصال السيكولوجي بين الذات والزمان أكثر تعقيداً من الاتصال بينه وبين الفضاء المكاني وذلك؛ لأن الإنسان قد يكابد العيش في المكان والانسجام مع طبائع الآخرين عبر المكنونات الحسية الشعورية، بينما الاحساس بالزمان يستدعي وجود الحاسة الفكرية أو الذهنية بكل تجلياتها وبواعثها، إذ يناجي الشاعر المستلب ذاته ويبث شكواه من الزمان و نكباته وحوادثه، تدفعه حياة الفقر والحرمان والمصائب، التي عصفت بذاته وضاق بها ذرعاً وانتكاساً، وأدت به إلى الانكسار والاضطهاد النفسي، وعليه فقد حمل الشاعر المهمش الزمان الكثير من عقده النفسية الكامنة بفعل الاخفاقات والانتكاسات التي لا تنسجم مع تحقيق المقاصد والغايات، أي أنّه قد عدّ الزمان هو المسؤول عن تلك النكبات والتقلبات والاخفاقات التي رافقت مواقف الناس وسلوكياتهم وميولهم بما لا ينسجم واحاسيس الشاعر المهمش وطبائعه وغاياته القصدية، ومن هنا غدا الشاعر يبث احتجاجه على مصائب الزمان وتقلباته، زد على ذلك يفرغ نقمته وغضبه الشديد عليه، وذلك عبر نصوصه الشعرية التي توضح دلالاتها وعلاماتها الإيحائية المكثفة اضطهاد النفس وألم الواقع الاجتماعي وقساوته، الأمر الذي جعل ذات الشاعر تغترب زمانياً وتستلب نفسياً واجتماعياً.

الهوامش:

(١) التحليل الفاعلي: نحو نظرية حول الإنسان الشيخ محمد الشيخ، دار الثقافة والإعلام، الشارقة، ط١، ٢٠٠١م: ١٢٠.

(٢) زمن الشعر، أدونيس، دار العودة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م: ٨٨.

(٣) ينظر: التحليل الفاعلي: نحو نظرية حول الإنسان،: ١٢٩.

(٤) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٨.

(٥) ينظر: الرواية والمكان ، ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، د.ط، ١٩٨٦م : ١٦/٢-١٧ .

(٦) ينظر: التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، دار غريب، القاهرة، ط٤، ١٩٨٤م:٦٥.

(٧) ينظر: إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، (د.ت) :٨.

(٨) يُنظر: شعرية المكان في الرواية الجديدة ، الخطاب الروائي لادوار الخراط نموذجًا ، خالد حسين حسين ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، الرياض ،٢٠٠٠م: ٦٣ – ٦٤ .

(٩) ينظر: مدخل إلى النقد المكاني، دراسات أدبية ، ياسين النصير ، دار نينوى ، للدراسات والنشر ، والتوزيع ،سورية – دمشق ، ط١ ، ٢٠١٥م : ١١١ .

(١٠) المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت– لبنان، (د.ط)، ١٩٨٢م: ٤١٣/٢.

(١١) يُنظر : مدخل إلى النقد المكاني: ٥٠ .

(١٢) شحنات المكان ، جدلية التشكيل والتأثير، جدلية التشكيل والتأثير، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق – بغداد ، ط١ ،٢٠١١م: ٧٦ .

(١٣) يُنظر: جماليات المكان ، مجموعة مؤلفين دار قرطبة، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٨م: ٦٣ .

(١٤) ديوان أبي الشمقمق، جمعه وحققه وشرحه، الدكتور واضح محمد الصمد، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٩٩٥م.: ٥٣– ٥٤.

(١٥) ديوان أبي الشمقمق: ٥٤– ٥٥.

(١٦) شعراء عباسيون منسيون، ابراهيم النجار، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.:٤ /١٤١.

(١٧) الأبعاد الأساسية للشخصية، أحمد حمد عبد الخالق، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط١، (د.ت): ١٩.

(١٨) شعرية المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لادوار الخراط نموذجًا ، خالد حسين حسين ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، الرياض ،٢٠٠٠م.: ٦٣ – ٦٤ .

(١٩) ديوان الاحنف العكبري، (ت٣٨٥هـ)، جمعه الحسن بن شهاب العكبري الحنبلي(ت ٤٢٨هـ)، تح، سلطان بن سعد السلطان، مكتبة الملك فهد، ط١، ١٩٩٩م.: ١٩٥.

(٢٠) الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، عبد القادر فيدوح، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان– الاردن، ١٩٩٢م: ٢٦٨.

(٢١) جماليات النص الأدبي دراسات في البنية والدلالة، مسلم حسب حسين، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع، لندن، ط١، ٢٠٠٧م: ١٠٢.

(٢٢) ديوان الأحنف العكبري:٥٤٣

(٢٣) جماليات النص الأدبي دراسات في البنية والدلالة : ١٠٢.

(٢٤) ديوان الأحنف العكبري: ٢٢٥-٢٢٦.

(٢٥) الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا، ابراهيم جنداري ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (آفاق عربية) العراق – بغداد ، ط١ ، ٢٠٠١م: ١٧٣ .

(٢٦) البناء الفني في الرواية العربية في العراق ، شجاع مسلم العاني ، دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق – بغداد ، ١٩٩٤م : ٢/ ١٣٧.

(٢٧) الزمان الدلالي (دراسة لغوية لمفهوم الزمان وألفاظه في الثقافة العربية)، د. كريم زكي حسام الدين، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٢، ٢٠٠٢م: ٥٣ .

(٢٨) ينظر: البناء الفني في الرواية العربية في العراق (بناء السرد)، شجاع مسلم العاني ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، ١٩٩٤م : ٦٨/١ .

(٢٩) ينظر: الزمن في الأدب ، هانز ميرهوف ، تر : أسعد رزوق ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٧٢م :٧ .

(٣٠) ينظر: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري، أحمد علي الفلاحي، دار غيداء للنشر والتوزيع، العراق، ط ١، ٢٠١٣م: ٧٥.

(٣١) ينظر: الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، يحيى العبد الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م: ٢٨.

(٣٢) الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري: ٧٥.

(٣٣) ينظر: لحظة الأبدية دراسة الزمان في أدب القرن العشرين، سمير الحاج شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠م : ٥.

(٣٤) المصدر نفسه: ٥.

(٣٥) ينظر: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري: ٧٥.

(٣٦) ديوان ابن الحجّاج، أبي عبد الله الحسين بن أحمد، (ت ٣٩١هـ)، جمعه وقدم له وعلّق عليه، سعيد الغانمي، منشورات الجمل، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠١٧م: ٣/ ٤٠٥.

(٣٧) الثابت والمتحول ، علي أحمد ادونيس ، ط٣ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٢ : ٨٢.

(٣٨) نقد الشعر في المنظور النفسي، ريكان إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٩م: ٨٧.

(٣٩) ديوان ابن الحجّاج: ١/ ٥٢٠.

(٤٠) الألم النفسي والعضوي، عادل صادق، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٦ م: ٢٦.

(٤١) ينظر: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري: ٨١.

(٤٢) ديوان الأحنف العكبري: ٢٣٧.

(٤٣) المشكلة الخلقيّة، زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٧١م: ٢٦٨.

(٤٤) ينظر: الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري: ٧٧- ٧٨.

(٤٥) ديوان الأحنف العكبري: ١٠٣.

(٤٦) الأبعاد التداولية للعلامات السيميائية اللسانية، دراسة تطبيقية في موطأ مالك، غصاب منصور الصقر، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط١، ٢٠١٨م:٢١١.

(٤٧) البلاغة وتحليل الخطاب، حسين خالفي، دار الفارابي، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠١١م: ١٠٥ .

المصادر:

١. الأبعاد الأساسية للشخصية، أحمد حمد عبد الخالق، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ط١، (د.ت).

٢. الأبعاد التداولية للعلامات السيميائية اللسانية، دراسة تطبيقية في موطأ مالك، غصاب منصور الصقر، عالم الكتب الحديث، إربد- الأردن، ط١، ٢٠١٨م.

٣. الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، عبد القادر فيدوح، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان- الاردن، ١٩٩٢م.

٤. إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ط١ ، (د.ت) .

٥. الاغتراب في الشعر العربي في القرن السابع الهجري، أحمد علي الفلاحي، دار غيداء للنشر والتوزيع، العراق، ط ١، ٢٠١٣م.

٦. الاغتراب، دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلون الروائية، يحيى العبد الله، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

٧. الألم النفسي والعضوي، عادل صادق، المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ، ١٩٨٦ م.

٨. البلاغة وتحليل الخطاب، حسين خالفي، دار الفارابي، بيروت- لبنان، ط١، ٢٠١١م .

٩. البناء الفني في الرواية العربية في العراق (بناء السرد)، شجاع مسلم العاني ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد، ١٩٩٤م .

١٠. البناء الفني في الرواية العربية في العراق ، شجاع مسلم العاني ، دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق – بغداد ، ١٩٩٤م.

١١. التحليل الفاعلي: نحو نظرية حول الإنسان الشيخ محمد الشيخ، دار الثقافة والإعلام، الشارقة، ط١، ٢٠٠١م.

١٢. التفسير النفسي للأدب، عز الدين إسماعيل، دار غريب، القاهرة، ط٤، ١٩٨٤م.

١٣. الثابت والمتحول ، علي أحمد ادونيس ، ط٣ ، دار العودة ، بيروت ، ١٩٨٢.

١٤. جماليات المكان ، مجموعة مؤلفين دار قرطبة، الدار البيضاء، ط٢، ١٩٨٨م .

١٥. جماليات النص الأدبي دراسات في البنية والدلالة، مسلم حسب حسين، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع، لندن، ط١، ٢٠٠٧م.

١٦. ديوان ابن الحجّاج، أبي عبد الله الحسين بن أحمد، (ت ٣٩١هـ)، جمعه وقدم له وعلّق عليه، سعيد الغانمي، منشورات الجمل، بيروت– لبنان، ط١، ٢٠١٧م.

١٧. ديوان أبي الشمقمق، جمعه وحققه وشرحه، الدكتور واضح محمد الصمد، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ط١، ١٩٩٥م.

١٨. ديوان الاحنف العكبري، (ت٣٨٥هـ)، جمعه الحسن بن شهاب العكبري الحنبلي(ت ٤٢٨هـ)، تح، سلطان بن سعد السلطان، مكتبة الملك فهد، ط١، ١٩٩٩م.

١٩. الرواية والمكان ، ياسين النصير ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، د.ط، ١٩٨٦م.

٢٠. الزمان الدلالي (دراسة لغوية لمفهوم الزمان وألفاظه في الثقافة العربية)، د. كريم زكي حسام الدين، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع ، ط٢، ٢٠٠٢م.

٢١. زمن الشعر، أدونيس، دار العودة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

٢٢. الزمن في الأدب ، هانز ميرهوف ، تر : أسعد رزوق ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، القاهرة، ١٩٧٢م.

٢٣. شحنات المكان ، جدلية التشكيل والتأثير، جدلية التشكيل والتأثير، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة ، العراق – بغداد ، ط١ ،٢٠١١م .

٢٤. شعراء عباسيون منسيون، ابراهيم النجار، دار الغرب الاسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.

٢٥.شعرية المكان في الرواية الجديدة ، الخطاب الروائي لادوار الخراط نموذجًا ، خالد حسين حسين ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، الرياض ،٢٠٠٠م.

٢٦.شعرية المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لادوار الخراط نموذجًا ، خالد حسين حسين ، مؤسسة اليمامة الصحفية ، الرياض،٢٠٠٠م .

٢٧.الفضاء الروائي عند جبرا ابراهيم جبرا، ابراهيم جنداري ، دار الشؤون الثقافية العامة ، (آفاق عربية) العراق – بغداد ، ط١ ، ٢٠٠١م.

٢٨.لحظة الأبدية دراسة الزمان في أدب القرن العشرين، سمير الحاج شاهين، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٠م.

٢٩.مدخل إلى النقد المكاني، دراسات أدبية ، ياسين النصير ، دار نينوى ، للدراسات والنشر ، والتوزيع ،سورية – دمشق ، ط١.

٣٠.المشكلة الخلقيّة، زكريا إبراهيم، دار مصر للطباعة، القاهرة، ط١، ١٩٧١م.

٣١.المعجم الفلسفي، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت– لبنان، (د.ط)، ١٩٨٢م.

٣٢.نقد الشعر في المنظور النفسي، ريكان إبراهيم، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٩م.